مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية ISSN:2602-8018
الرقم التسلسلي :04 جوان 2020

ظَاهِرَةُ شِعْرِ السُّجُونِ وَتَجَلِّيَاتِهَا فِي الأدَبِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ

The phenomenon of prison poetry and its manifestations in ancient Arabic literature

د/ طارق زيناي

أستاذ محاضر قسم (أ)

جامعة العربي بن مهيدي * أم البواقي* الجزائر

zinaitarek@gmail.com

0778096444 أو 0669726284

Abstract

The feeling of prisons is considered one of the most important old phenomena in Arabs and other Nations that attended the Arab creativity, as the reflecting of poetry, especially, finds an abundance of subjects where its owners are more than mentioning all that concerns their imprisonment, so that psychological, emotional and intellectual approaches appeared, and their views were surfaced toward life, death and time. The first of these is the "Arab" and "Arab", which is the first of the Arab countries to be discussed. What are the most important topics that the prisoner has addressed in his prison, which reflected his psychological, emotional and intellectual experiences? The research followed a descriptive and analytical approach, in which the phenomenon of prison hair in the old Arab human was decided, and it reached conclusions that can be found in technical issues, including the absence of total introductions, the presence of the comic introduction, an exception in some poetry texts, as well as the tyranny of the construction methods

Key words:
Poetry, prisons, psychological aspects, emotional aspects, intellectual aspects

مُلَخَّصُ البَحْثِ

يعدُّ شعر السجون من أهم الظواهر القديمة عند العرب وعند الأمم الأخرى التي كان له حضور في الإبداع العربي، حيث إن المتأمل للشعر خاصة يجد وفرة الموضوعات التي أكثر فيها أصحابها من ذكر كل ما يخصُّ سجنهم، فظهرت المناحي النفسية والعاطفية والفكرية، وطفت على السطح رؤاهم اتجاه الحياة والموت والزمن، وتنوعت أحاسيسهم اتجاه أحبابهم وأهلهم، فظهرت لأجل ذلك أغراض متنوعة، ولعلَّ الإشكال المطروح الذي يراد مناقشته، هو كيف تجلَّى السجن في الشعر العربي القديم؟ وما هي أهم الموضوعات التي تطرق لها السجين في محبسه، والتي عكست مناحي تجربته النفسية والعاطفية والفكرية؟ وقد اتَّبع الباحث منهجا وصفيا تحليليا، قصد من خلاله تقرير ظاهرة شعر السجون عند الإنسان العربي القديم، وقد توصل إلى نتائج يمكن إجمالها في قضايا فنية؛ منها غياب المقدمات إجمالا، وحضور المقدمة الغزلية استثناء في بعض النصوص الشعرية، وكذا طغيان الأساليب الإنشائية على الخبرية، وأيضا شيوع المقطعات على حساب القصائد الطويلة، وشيوع ظاهرة التكرار، أما من الناحية العاطفية، فقد ظهر الشعر صادقا، وليد تجربة شعورية مليئة بالألم والشوق والحنين.

الكلمات المفتاحية :

شِعْرٌ؛ سُجُونٌ؛ مَنَاحٍ نَفْسَيَّةُ؛ مَنَاحٍ عَاطِفِيَّةُ؛ مَنَاحٍ فِكْرِيَّةُ.

مُقُدِّمَةٌ :

من الملاحظ أنَّ شعر السجون لم ينل حظَّه من الاهتمام والدراسة إلا في العقود الأخيرة، حيث برزت دراسات تتناول أدب السجون في الوطن العربي قديما وحديثا، يمكن أن نذكر منها كتاب الأسر والسجن في شعر العرب (تاريخ ودراسة) لأحمد مختار البزرة، السجون وآثارها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي لواضح الصمد، كتاب تجربة السجن في الشعر الأندلسي لرشا عبد الله الخطيب، يقول أحمد مختار البزرة : « ليس ثمة كتاب للأقدمين في الأدب والشعر، مما انتهى إلينا خبره، أفرد للحديث عن شعر الأسر على إحاطتهم به، ودرايتهم الواسعة بوقائعه وظروفه، لكنهم فرقوه في ثنايا عديد المؤلفات الموسعة والموجزة، متصلا بالأخبار أو مضموما إلى المختارات أو مرفقا بذكر الأماكن والبلدان »[1]، فالدارس لهذه المؤلفات يرى أن السجون شيدت في العصر الجاهلي في إمارتي الغساسنة والمناذرة، وفي مدن

مكة واليمن بل حتى في القبائل العربية، ولكنه كان أسرا مؤقتا، وهذا لطبيعة العرب القائمة على الرحلة والانتجاع، وقد قيل الشعر في السجون من العصر الجاهلي حتى يومنا هذا، من شعراء معروفين ومن آخرين مغمورين، ومن عبيد وأحرار، وفُسَّاق وأخيار، ولصوص وصعاليك، ومما سبق نتساءل عن ماهية أدب السجون ؟ وأهم قضاياه وأغراضه ؟ وأشهر أعلامه ؟ وأبرز خصائصه الفنية ؟

أَوَّلًا: مَفْهُومُ أَدَبِ السُّجُونِ :

لاشك أننا لا نستطيع أن نتوصل إلى تعريف منضبط لأدب السجون، إلا إذا تمكنَّا من بناء تصور واضح حول السجين أو الأسير في حدِّ ذاته، يقول أحمد مختار البزرة أنه : « إذا آل أمر المرء إلى عدوه، فتمكن منه التمكن كله، وقدر على أن يتصرف بمصيره -كما يشاء- حياةً أو موتاً أو استرقاقا، فقد أصبح أسيره وحبيسه » [2] ولعل هذا التعريف له علاقة مباشرة بالأصل اللغوي لكلمة الأسر، « وَهُوَ الْحَبْسُ، وَهُوَ الْإِمْسَاكُ، مِنْ ذَلِكَ الْأَسِيرُ، وَكَانُوا يَشُدُّونَهُ بِالْقِدِّ وَهُوَ الْإِسَارُ، »[3]، ولهذا صار من يُشَدُّ بالقيد، بحيث يُحدُّ من حركته وحريته أسيرا عاجزا، مصيره بيد غيره، والأسير في اللغة يأتي مرادفا للسجين، في العصرين الجاهلي والإسلامي، إلا أنهما أصبحا في العصر العباسي يختلفان، في أن الأسير؛ أسير الحرب، والسجين أو الحبيس؛ هو الذي تعتقله السلطة لسبب ما، وقد جاء ذكر السجن في القرآن الكريم في أكثر من موضع من سورة يوسف في سياقات مختلفة.

ولعل سلب الحرية للإنسان هي أعظم ما يمكن أن يصيبه، حتى ولو كان مطلوق اليدين، فحينذاك، تصير الأرض بما اتسعت في بعض الأحيان سجنا كبيرا، كما الأمر بالنسبة للصعاليك، ومع ذلك يعدُّ الأسر بمفهومه المتعارف عليه من أقسى العقوبات، إذن « فالمسألة أولا وأخيرا مسألة سيادة الإنسان على ذاته من غير أن يكون لأحد مشاركة في هذه السيادة »[4] إذ لو اختار أحدنا أن يلزم بيته، وأن لا يخرج منه، لاشك أنه لا يعدُّ سجينا، لأن السيادة بيده، ولا إكراه عليه، وللأسر أسباب يمكن أنها ترجع في مجملها للخصام السياسي والديني، والغزو والحرب، والاختطاف، والجنايات من قتل وسرقة واختلاس وعصيان وصعلكة وفسق.

الملاحظ أن هذه الصورة الخارجية لها علاقة بما يعانيه الأسير من معاناة نفسية، وذل ومهانة وانكسار، وفي هذا المعنى يقول أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: « كُتِبَ على باب السجن: هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وتجربة الصديق وشماتة الأعداء »[5] ، و لعلَّ هذه الجوانب المذكورة في النص السابق هي الأشد تعلقا بأدب السجون؛ إذ الشاعر فيه يعبر عن نفسه بما ناله السجن منه من تضييق وبؤس وتقييد وألم، وانقلاب صديق وشماتة عدوٍّ، هذا بغض النظر عمَّا يمكن أن يتعرض له السجين من عنف جسدي أو معنوي، وبعد هذه الإشارات الممهدة، نجد أن مفهوم أدب السجون، لا يكاد يخرج عن كونه ما قاله السجين في أسره حول قضية من القضايا أو موضوع من المواضيع، ذي الصلة المباشرة بمشاعره وأحاسيسه داخل الأسر، كالحديث عن الحنين والشكوى والعتاب والفخر والهجاء والاستعطاف والتأمل وإظهار الصبر، وغير ذلك .

ثَانِيًّا : أَغْرَاضُ شِعْرِ السُّجُونِ :

إن شعر السجون لا يخرج عن كونه يتناول الجوانب النفسية والعاطفية والفكرية للشعراء ووصفهم للحياة داخل السجون، وأيضا موقفهم من سجانيهم، وأيضا مشاعرهم اتجاه أهلهم وأصدقائهم، وأيضا فتح باب الحكمة والاعتبار وأخذ الدروس من مدرسة الحياة، وفيما يلي تفصيلٌ لهذه الأغراض :

1/ المَنَاحِي النَّفْسِيَّةُ :

وهو المتعلق بما يحسه المساجين من مشاعر متباينة اتجاه السجن وحالتهم فيه، بين الشعور بالمرارة والبلاء والمشقة، واستبدال العز بالذلِّ، أو انتظار الموت فيه، فمثلا يقول أبو إسحاق الموصلي في أسره، أيام هارون الرشيد، ذاكرا المشقة والعنت اللتين نالتاه[6] :

أَلَا طَالَ لَيْلِي أَرَاعِي النُّجُومَ	أُعَالِجُ فِي السَّاقِ كَبْلًا ثَقِيلَا
بِدَارِ الـهَوَانِ وَشَرِّ الدِّيَارِ	أُسَامُ بِهَا الخَسْفَ صَبْرًا جَمِيلَا
كَثِيرٌ الأَخِلَّاءُ عِنْدَ الرَّخَاءِ	فَلَمَّا حُبِسْتُ أَرَاهُمْ قَلِيلَا

لِطُولِ بَلَائِي مَلَّ الصَّدِيقُ	فَلَا يَأْمَنَنَّ خَلِيلٌ خَلِيلَا

ويتعاظم الخطب والشعور بالاضطهاد عند بعض الشعراء، بحيث يذكرون ما كانوا عليه من كرامة وعز، وما صاروا إليه من ذل ومهانة وبؤس، ولعلَّ أبا فراس الهمذاني يقف في مقدمة هؤلاء، حيث تظهر رومياته ممتزجة بين الألم والعظمة، وكيف لا وهو ابن عمِّ سيف الدولة الهمذاني، والإحساس الغالب على مثل أولئك القوم، أنهم يرون أنفسهم مركز الكون، ولهذا ينهالون باللوم على الزمن، الذي ما أنصفهم إذ رماهم في غياهب السجون، وفي هذا المعنى يقول المعتمد بن عباد أحد ملوك الطوائف في الأندلس لما أُسر[7] :

أَبَى الدَّهْرُ أَنْ يَقْنَى حَيَاءً وَيَنْدَمَا	وَأَنْ يَمْحُوَ الذَّنْبَ الذِي كَانَ قَدَّمَا
فَإِنْ يَتَلَقَّى وَجْهَ عَتَبِي وَجْهُهُ	بِعُذْرٍ يُغَشِّي صَفْحَتَيْهِ التَّذَمُّمَا
سَتَعْلَمُ بَعْدِي مَنْ تَكُونُ سُيوفُهُ	إِلَى كُلِّ صَعْبٍ مِنْ مَرَاقِيكَ سُلَّمَا
سَتَرْجِعُ إِنْ حَاوَلْتَ دُونِي فَتَكَةً	بِأَخْجَلَ مِنْ خَدِّ المُبَارِزِ أَحْجَمَا

ومن المسجونين من يجتمع عنده الأسر وانتظار القتل فيه في أي لحظة، بحيث يصل الحال ببعضهم إلى انهيار نفسي جراء استرهابهم للموت والفزع من المنتظر الآتي، يقول واضح الصمد مبرزا فضاعة الإحساس بقرب الأجل عند السجين « ومن أدب السجون، ما يصف لنا مواقف بعض الشعراء، وقد دفعوا إلى الحافة الرهيبة، التي تهوي بهم إلى العالم الآخر، وأشرفوا على الموت، ومثل هذا الأدب تصريح للصراع النفسي لما تبدت النهاية المرعبة، فمن السجناء من اعتراه شعور الراغب بإيقاف الزمن وتجميده، حتى لا يتقدم به إلى الساعة المرتقبة »[8] ومن هؤلاء الشعراء نجد عبد يغوث بن صلاءة الحارثي وجعفر بن علبة والأصبغ بن ضرار، وفي هذا المعنى يقول هدبة بن الخَشرم العذري في سجنه، وهو يعلم أنه على موعد مع الموت[9] :

أَلَا عَلِّلَانِي قَبْلَ نَوْحِ النَّوائِحِ	وَقَبْلَ اطِّلَاعِ النَّفْسِ بَيْنَ الجَوَانِحِ
وَبَعْدَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى غَدٍ	إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَائِحِ

إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي بِفَيْضِ دُمُوعِهِمْ	وَغُودِرْتُ فِي لَحْدٍ عَلَيَّ صَفَائِحِي
يَقُولُونَ هَلْ أَصْلَحْتُمْ لأَخِيكُمْ	وَمَا الرَّمْسُ فِي الأَرْضِ القِوَاءِ بِصَالِحِ

وفي الموقف نفسه نجد من الشعراء من أثّر في سامعيه، وحملهم على التعاطف معه، بحيث يتغير موقفه من الأمر بالقتل إلى العفو، منهم تميم بن جميل التغلبي، الذي ثار على المعتصم، فسجنه، ثم قدمه للموت، فأنشد بين يديه أبياتا، عفا عنه بها، منها[10]:

وَمَا جَزِعِي مِنَ أَنْ أَمُوتَ وَإِنَّنِي	لأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مُؤَقَّتُ
وَلَكِنَّ خَلْفِي صِبْيَةً قَدْ تَرَكْتُهُمْ	وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتُ
كَأَنِّي أَرَاهُمْ حِينَ أُنْعَى إِلَيْهِمْ	وَقَدْ خَمَشُوا حُرَّ الْوُجُوهِ وَصَوَّتُوا
فَإِنْ عِشْتُ عَاشُوا سَالِمِينَ بِغِبْطَةٍ	أَذُودُ الأَذَى عَنْهُم وَإِنْ مِتُّ مَوَّتُوا
فَكَمْ قَائِلٍ : لَا يُبْعِدُ اللهُ دَارَهُ	وَآخَرُ جَذْلَانٌ يُسَرُّ وَيَشْمَتُ

وفي هذا المنحى النفسي لشعر السجون تدخل فيه مواضيع خاصة بالهموم والآلام، وما يتبع ذلك من بكاء وغربة، ورغبة في التطهير النفسي، ومكابدة الصبر على كل ما سبق.

2/ المَنَاحِي العَاطِفِيَّةُ :

وفيها يظهر الشاعر السجين تتدافع في نفسه الانفعالات « ويخترق خياله جدران السجن السميكة، وأبوابه الموصدة، إلى مراتع صباه، إلى الأهل والأحبة، إلى ذلك العالم الغني بالذكريات »[11]، ولاشك أنه ما يزيد من عظم الألم والمصيبة عنده، هو انقطاعه شبه التام على العالم الخارجي، الذي يضم أحبابه، فيعيش بحكم هذا الانقطاع بين أمل يرجوه وشوق يحدوه، ولعل بائية هدبة بن الخشرم تقدم لنا صورة رجل يعيش مأزقا نفسيا يتصارعه البؤس والأمل، فيقول في ذلك [12]:

عَسَى الْهَمُّ الذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ	يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

فَيَأْمَنَ خَائِفٌ وَيُفَكَّ عَانٍ	وَيَأْتِي أَهْلَهُ الرَّجُلُ الْغَرِيبُ
ألا لَيْتَ الرِّيَاحَ مُسَخَّرَاتٍ	لِحَاجَتِنَا تُبَاكِرُ أَوْ تَؤُوبُ
فَتُخْبِرَنَا الشَّمَالُ إذَا أَتَتْنَا	وَتُخْبِرُ أَهْلَنَا عَنَّا الْجَنُوبُ
بِأَنَّا قَدْ نَزَلْنَا دَارَ بَلْوَى	فَتُخْطِئُنَا الْمَنِيَّةُ أَوْ تُصِيبُ
فَإِنْ يَكُ صَدْرُ هَذَا الْيَوْمِ وَلَّى	فَإِنَّ غَدًا لِنَاظِرِهِ قَرِيبُ
وَقَدْ عَلِمَتْ سُلَيْمَى أَنَّ عُودِي	عَلَى الحَدَثَانِ ذُو أَيْدٍ صَلِيبُ
وَأَنَّ خَلَائِقِي كَرَمٌ وَأَنِّي	إِذَا أَبْدَتْ نَوَاجِذَهَا الحُرُوبُ
أَعِينُ عَلَى مَكَارِمِهَا وَأَغْشَى	مَكَارِهَهَا إِذَا هَابَ الهَيُوبُ
وَأَنِّي لَا يَخَافُ الْغَدْرَ جَارِي	وَلَا يَخْشَى غَوَائِلِيَ الْقَرِيبُ

وقد أبدع أبو فراس الحمداني في تصوير شوقه وشعوره المتوهج لما تركه وراء جدران السجن، فيقول مستذكرا الأماكن[13]:

قِفْ فِي رُسُومِ المُسْتَجَا	بِ وَحَيِّ أَكْنَافَ المُصَلَّى !
فَـ" الجَوْسَقِ " المَيْمُونِ، فَـ" السَّـ	قْيَا" بِهَا، فَالنَّهْرُ أَعْلَى !
تِلْكَ المَنَازِلُ، وَالمَلَا	عِبُ، لَا أَرَاهَا اللهُ مَحْلَا !
أَوطِنْتُهَا زَمَنَ الصِّبَا	وَجَعَلْتُ مَنْبَجَ لِي مَحَلَّا
حَرُمَ الوُقُوفُ بِهَا عَلَيَّ	وَكَانَ قَبْلَ اليَوْمِ حِلَّا

ويأتي ذكر الديار عند الشعراء المساجين محملا بوهج عاطفي للأهل والأصحاب، فيزداد الشوق والحنين، لأن الشوق إلى الأهل هو بعض الشوق إلى الوطن، ولعلنا لا نجد كثير اختلاف بين الشعراء المساجين والطلقاء في

تعبيرهم عن التشوق للأهل والحنين إليهم، إلا أن المميز لشعر السجون هو أصالة التجربة وعمق الألم، وقد تكاثر التعبير عن هذه العاطفة عند الشعراء في صور شتى، ولعلَّ رؤية كثير من المظاهر الكونية كالرياح والبروق والسحاب والنار والطيور وغيرها يهيج وجدان الشاعر، بحيث يضفي عليها الحياة، فيهمس إليها بوجعه، ويحملها رسائل كثيرة لأحبابه، ولعل ابن المعتز قد ألهمته الطيور وقد مرت بسجنه سحرا، فقال[14] :

يَا نَفْسُ صَبْرًا لَعَلَّ الخَيْرَ عُقْبَاكِ	خَانَتْكِ مِنْ بَعْدِ طُولِ الْأَمْنِ دُنْيَاكِ
مَرَّتْ بِنَا سَحرًا طَيْرٌ فَقُلْتُ لَهَا :	طُوبَاكِ يَا لَيْتَنِي إِيَّاكِ طُوبَاكِ
لَكِنْ هُوَ الدَّهْرُ فَالقِيهِ عَلَى حَذَرٍ	فَرُبَّ مِثْلَكِ يَنْزُو تَحْتَ أَشْرَاكِ

ولكن أبدع صورة شعرية هي التي رسمها أبو فراس الحمداني وهو يخاطب حمامة في سجنه، سمع نواحها، فيقول[15] :

أَقُولُ وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبي حَمَامَةٌ :	أَيَا جَارَتَا هَلْ بَاتَ حَالُكِ حَالِي ؟
مَعَاذَ الهَوَى ! مَاذُقْتِ طَارِقَةَ النَّوَى ،	وَلَا خَطَرَتْ مِنْكِ الهُمُومُ بِبَالِ
أَتَحْمِلُ مَحْزُونَ الفُؤَادِ قَوَادِمٌ	عَلَى غُصْنٍ نَائِي المَسَافَةِ عَالِ ؟
أَيَا جَارَتَا، مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا !	تَعَالَيْ أُقَاسِمْكِ الهُمُومَ، تَعَالِي!
تَعَالَيْ تَرَيْ رُوحاً لَدَيَّ ضَعِيفَةً ،	تَرَدَّدُ فِي جِسْمٍ يُعَذِّبُ بَالِي
أَيَضْحَكُ مأسُورٌ، وَتَبَكِي طَلِيقَة،	وَيَسْكُتُ مَحْزُونٌ، وَيَنْدُبُ سَالِ ؟
لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَى مِنْكِ بِالدَّمْعِ مُقْلَة؛	وَلَكِنَّ دَمْعِي فِي الحَوَادِثِ غَالِ!

3/ المَنَاحِي الفِكْرِيَّةُ :

لعله ليس هناك مكان يفتح للإنسان باب التفكر والتأمل في الحياة، واستخلاص العبر منها، ومكاشفة النفس، وصقل ملكة العقل واستدعاء الحكمة

كالسجن؛ لأنه مكان الاختلاء والصفاء، ولهذا نلحظ في شعر السجون آراء سديدة وتجارب فكرية ناضجة، عرفوا من خلالها تقلب الأزمان، ومعدن الخلان، فانفجرت عندئذ ينابيع الحكمة شعرا تأمليا يتناول نقدا ذاتيا أو آراء شاملة تصلح لكل من هو على شاكلة صاحبه، خاصة عندما يعيش المرء تجربة مفارقة، يعيش حالا من الغبطة والسرور ثم ينقلب إلى حال أخرى من النكد والألم « وربما كان لسان الدين بن الخطيب أعمق إحساسا بالمفارقات بين الحالين، إذ كان في قعر الهاوية، وتراءت له مأساته كارثة كونية تهيمن على مصائر أمثاله »[16] فقال شعرا أشبه بشعر الزهاد الحكماء، الذين عرفوا حقيقة الحياة، ومنه هذه الأبيات[17] :

بَعُدْنَا وَإنْ جَاوَرَتْنَا البُيوتُ	وَجِئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ
وَأنَفَاسُنَا سَكَنَتْ دُفْعَةً	كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تَلَاهُ القُنُوتُ
وَكُنّا عِظَامَاً فَصِرْنَا عِظَاماً	وَكُنّا نَقُوتُ فَمَا نَحْنُ قُوتُ
وَكُنّا شُمُوسَ سَمَاءِ العُلَا	غَرَبْنَ فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السُّمُوتُ
وَكَمْ سِيقَ لِلْقَبْرِ فِي خِرْقَةٍ	فَتَىً مُلِئَتْ مِنْ كِسَاهُ التُّخُوتُ
فَقُلْ لِلْعِدَا ذَهَبَ ابْنُ الخَطِيبِ	وَفَاتَ، وَمَنْ ذَا الذِي لَا يَفُوتُ
وَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْهُمْ لَهُ	فَقُلْ: يَفْرَحُ اليَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتُ

وإذا كان عدي بن زيد أكثر الشعراء طرقا لشعر الحكمة في السجون في الجاهلية، فإن أبا العتاهية أكثرهم في الإسلام، ولعل الزهد عنده هو من أكسبه فلسفة التأمل في الحياة، لكن الذي يميزه عن عدي هو الطابع الديني الظاهر، وإن كانا يشتركان في تصوير نهاية الإنسان ومصيره المحتوم، وفي هذا يقول أبو العتاهية في تصوير محبسه زمن الرشيد، مبينا له عاقبة الظلم[18] :

أَمَا وَاللهِ إنَّ الظُّلْمَ لُؤْمٌ	وَلَكِنَّ المُسِيَ هُوَ الظَّلُومُ

إِلَى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي	وَعِنْدَ اللهِ تَجْتَمِعُ الخُصُومُ
سَتَعْلَمُ فِي الحِسَابِ إِذَا الْتَقَيْنَا	غَدًا عِنْدَ الإِلَهِ مَنِ المَلَومُ
سَيَنْقَطِعُ التَّرَوُّحُ عَنْ أُنَاسٍ	مِنَ الدُّنْيَا، وَتَنْقَطِعُ الغُمُومُ
تَنَامُ، وَلَمْ تَنَمْ عَنْكَ المَنَايَا	تَنَبَّهْ، لِلْمَنِيَّةِ، يَا نَؤُومُ
تَمُوتُ غَدًا وَأَنْتَ قَرِيرُ عَيْنٍ	فِي الغَفَلَاتِ فِي لُجَجٍ تَعُومُ
لَهَوْتَ عَنِ الفَنَاءِ وَأَنْتَ تَفْنَى	وَمَا حَيٌّ عَلَى الدُّنْيَا يَدُومُ
تَرُومُ الخُلْدَ فِي دَارِ المَنَايَا	وَكَمْ قَدْ رَامَ غَيْرَكَ مَا تَرُومُ
سَلِ الأَيَّامَ عَنْ أُمَمٍ تَقَضَّتْ	فَتُخْبِرْكَ المَعَالِمُ وَالرُّسُومُ
وَلَيْسَ يَذِلُّ بِالإِنْصَافِ حَيٌّ	وَلَيْسَ يَعِزُّ بَالغَشْمِ الغَشُومُ

وفي الأخير لابد من الإشارة إلى أنه إذا كان الغالب على الشعراء هو الشكوى من السجن والتبرُّم من العيش فيه، فإن من الشعراء من استساغوه ورضوا به، بل واختاروه في بعض الأحيان على الحرية، ومن هؤلاء نجد الأحوص كأول من تشامخ على من حبسوه، ثم يأتي إبراهيم بن المدبر وعلي بن الجهم وأبو إسحاق الصابي، ولعلَّ لهذا الشعور دوافع نفسية، يحاول من خلالها صاحبها أن يدعي خلاف الواقع ليعوض ما أصابه « من سقوط وهوان في منزل الذل والظلم، فيسعى - وقد خسر مكانته – أن يوثق نفسه وأن يعيد لها قيمتها واعتدادها، فيقابل الوقائع الصارخة بالادِّعاء الواهم، ويضع التشامخ الرافع في مواجهة الذل الخافض، والقوة في وجه الضعف »[19] إلا أن الغالبية من الشعراء رأوا في السجن دار المذلة والهوان، ولهذا نجد من الشعراء من يكذب دعوى التصبر والجلد في السجن، ومن هؤلاء محمد بن عاصم، الذي نقض دالية علي بن الجهم، التي يدعي فيها الشموخ والرضى بالسجن بالروي والبحر نفسه، والتي منها قوله[20] :

مَنْ قَالَ إنَّ الحَبْسَ بَيْتُ كَرَامَةٍ	فَمُكَابِرٌ فِي قَوْلِهِ مُتَجَلِّدُ
مَا الحَبْسُ إلَّا بَيْتُ كُلِّ مَهَانَةٍ	وَمَذَلَّةٍ وَمَكَارِهَ لَا تَنْفَذُ
إنْ زَارَنِي فِيهِ العَدُوُّ فَشَامِتٌ	يُبْدِي التَّوَجُّعَ تَارَةً وُيُفَنِّدُ
أَوْ زَارَنِي فِيهِ الصَّدِيقُ فَمُوجَعٌ	يُذْرِي الدُّمُوعَ بِزَفْرَةٍ تَتَرَدَّدُ
يَكْفِيكَ أَنَّ الحَبْسَ بَيْتُ لَا تَرَى	أَحداً عَلَيهِ مِنَ الخَلَائِقِ يُحْسَدُ

خَاتِمَةٌ :

مما سبق يمكن أن نجمل النتائج المتوصل إليها في النقاط التالية :

*/ المتأمل لشعر السجون يرى أنه يتفاوت في حضور المقدمات من عدمها، ولعل أكثر المقدمات حضورا هي المقدمة الغزلية ذات المعطى الذاتي المرتبط بالجانب الوجداني من الشاعر، وإن كانت جل الحبسيات تفتقر للمقدمة، حيث إن الشاعر يهجم مباشرة على الموضوع المراد دون التقديم له، وخاصة في حبسيات المديح الموجه في الغالب إلى الخليفة أو السلطان أو الأمير.

*/ طغيان الأساليب الإنشائية على الخبرية، حيث إننا « إذا أمعنا النظر في أدب السجون نلاحظ أنها تكاد لا تخلو قصيدة من صيغ النداء والاستفهام البلاغي والأمر والطلب، كل الأساليب الإنشائية الأخرى من تمنٍّ ورجاء وتعجب ودعاء»[21]، ومعلوم ما يحدثه الأسلوب الإنشائي في وجدان وعواطف المتلقي.

*/ شيوع المقطوعات في شعر السجون، ويعبر من خلالها الشعراء عن خواطر طارئة تلم بالسجين، فيصوغها في أبيات قليلة ذات مغزى، في أغراض العتاب والاستعطاف والتوسل والعتاب والشوق ووصف تقلب الزمان وتغير الأحوال وغير ذلك.

*/ إذا استثنينا شعر مديح ولاة الأمور، فإن الحبسيات كلها صادقة العاطفة، فهي وليد تجربة شعورية، تمتاز بالعفوية وتدفق المشاعر وقوة الانفعالات، حيث تظهر فيها عمق التجربة وعنفها، وما تحمله من ألم وأمل ومعاناة وشوق وبكاء، ولهذا الصدق العاطفي عدة مظاهر تتجلى في البوح والنجوى والاعتراف الداخلي، وأيضا الوصف الحسي والنفسي لما يعانيه السجين،

وأيضا يظهر في الحوار الداخلي عند الشاعر، أو الحوار المتخيل خاصة مع الزوجة أو ذويه.

*/ تنوعت فخامة اللفظ وديباجته من ناحية وسلاسته وعذوبته من ناحية ثانية تبعا للخصائص الفنية لكل عصر، ولهذا نلحظ أن شعر السجون في العصر الجاهلي والإسلامي، قد جاء فخما جزلا غريبا، وفي المقابل جاء في العصر العباسي رقيقا عذبا، ولعل هناك أسبابا أخرى تتحكم في الصياغة الشعرية ترجع للشاعر نفسه، من خصوصيته الفنية، وكونه شاعرا حضريا أو بدويا، وترجع للغرض المقصود من الشعر، فليس ما يقوله في المديح مثل ما يقوله في الغزل، وترجع أيضا لمن يتوجه إليه الشاعر، فليس ما يقوله الشاعر في زوجته، مثل ما يقوله في الخليفة أو الأمير، وهكذا.

*/ شيوع ظاهرة التكرار التي يراد من ورائها التأثير في السامعين، وطلب مشاركتهم ما يعانيه السجين من ألم وقهر.

*/ المعجم الشعري في أدب السجون لا يكاد يخرج عن الألفاظ، التي تبعث على الأسى والحزن والشوق والحنين، وذكر السجون وما فيها من سلاسل وحديد وقيود...

*/ ظهور فن الرسائل الشعرية، والتي تمتاز في الغالب بالتكثيف والاختصار في إيراد الغرض المراد مع وضوحه، وذكر اسم المرسل إليه أو المرسل إليهم، كما يظهر خلوها من المقدمات، وتبدأ في الغالب بـالطلب ((بلِّغ، أبلغ)).

الهَوَامِشُ:

---

[1] - أحمد مختار البزرة، الأسر والسجن في شعر العرب (تاريخ ودراسة)، مؤسسة علوم القرآن، سوريا، ط01، 1985، ص 15.

[2] - المرجع نفسه، ص18.

[3] - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج01، تح : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1979، ص 107.

[4] - أحمد مختار البزرة، الأسر والسجن في شعر العرب (تاريخ ودراسة)، مرجع سبق ذكره، ص23- 24.

[5] - عيون الأخبار، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418ه، ص 149.

[6] - شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج04، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط01، 1423 ه، ص 331.
[7] - أبو عبد الله عماد الدين الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ج 2، تح: آذرتاش آذرنوش، الدار التونسية للنشر، تونس، 1971، ص 37.
[8] - السجون وأثرها في الآداب العربية (من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 1995، ص 207- 208.
[9] - الديوان، جمع : يحي الجبوري، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط02، 1986، ص89.
[10] - المحسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج04، مرجع سبق ذكره، ص90.
[11] - واضح الصمد، السجون وأثرها في الآداب العربية (من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي)، مرجع سبق ذكره، ص 215.
[12] - الديوان، مصدر سبق ذكره، ص59- 61.
[13] - الديوان، شرح : خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط02، 1994، ص 240- 241.
[14] - أبو الفتح صفيّ الدين عيسى بن البحتري، أنس المسجون وراحة المحزون، تح : محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، ط01، 1997، ص 141.
[15] - الديوان، مصدر سبق ذكره، ص 290.
[16] - أحمد مختار البزرة، الأسر والسجن في شعر العرب (تاريخ ودراسة)، مرجع سبق ذكره، ص 504.
[17] - شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج05، تح : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط01، 1997، ص 111.
[18] - الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط01، 1986، ص398- 399.
[19] - أحمد مختار البزرة، الأسر والسجن في شعر العرب (تاريخ ودراسة)، مرجع سبق ذكره، ص456
[20] - عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1423ه، ص 71.

[21] - واضح الصمد، السجون وأثرها في الآداب العربية (من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي)، مرجع سبق ذكره، ص 258.